الغزو البرتغالي للخليج العربي دراسة في الأسباب والنتائج

م.م. ثـــامر عـــزام حمـــد
جامعة تكريت/كلية التربية
قسم التاريخ

المقـــدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق أجمعين. وبعد

تعد منطقة الخليج العربي ذات مواقع إستراتيجي مهم، فضلا عن أهميتها الاقتصادية، مما كان له الأثر في غزو الأوربيين لسواحلها، وفي مقدمتهم البرتغاليون الذين فرضوا سيطرتهم عليها منذ القرن السادس عشر. وقد استقطب هذا الأمر اهتمام الباحثين فعالجوا مراحل الغزو وأسبابه. ويأتي هذا البحث إمتدادا للعديد من البحوث والدراسات التي تناولت موضوع الهيمنة البرتغالية على الخليج العربي.

يتكون البحث من ثلاث مباحث، تناول المبحث الأول أهم الدوافع للغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي، والتي تضمنت دوافع دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية، وقد وضحنا فيه تلك الدوافع بشكل مختصر.

أما المبحث الثاني فقد سلط الضوء على الاحتلال البرتغالي للخليج العربي وتشجيع البابوية لذلك الاحتلال، وكذلك الأساليب التي استخدمها المستعمرون البرتغاليون للسيطرة على تجارة المحيط الهندي والخليج العربي وحرمان العرب والمسلمين من ممارسة نشاطهم التجاري في تلك البحار. وتناول المبحث وبشكل موجز الحملات العسكرية، التي قادها البرتغاليون وخاصة الحملة العسكرية التي قادها القائد البرتغالي الفونسودي البوكيرك الذي تمكن من السيطرة على مملكة هرمز في عام ، التي تمتاز بموقعها الاستراتيجي المهم كمنفذ للخليج واستطاع السيطرة على عدد من الموانئ التجارية المهمة في الخليج العربي.

أما المبحث الثالث وهو الأكثر أهمية في البحث، فقد تناول العوامل المهمة التي أدت إلى نهاية النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، فقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى نهاية البرتغاليين منها داخلية ومنها خارجية، فكان فقدان البرتغال لاستقلالها وانضمامها إلى التاج الإسباني في عام ، من أهم العوامل التي أدت إلى ضعف البرتغاليين، وكذلك فإن تعاملهم السيئ مع العرب والمسلمين وتعصبهم الديني وجشع حكامهم، قد أدى إلى كره السكان لهم، وقام العرب بعدة انتفاضات للتحرر من هيمنتهم، وأبرز تلك الانتفاضات، الانتفاضة التي قادها العمانيون بقيادة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، والتي كانت العامل الحاسم لإضعاف نفوذ البرتغاليين في الخليج العربي، فقد أدت تلك الانتفاضات إلى إضعاف البرتغاليين عسكريا وشل حركتهم، مما أتاح الفرصة لدخول عدد من المنافسين الجدد من الدول الأوربية ومنهم الهولنديون والإنكليز لتحقيق المكاسب في الهند وجنوب شرق آسيا وانتزاع ممتلكاتهم.

: **دوافع الغزو البرتغالي لسواحل الخليج العربي**:-

كان البرتغال في مقدمة الدول الأوربية التي امتد نفوذها إلى منطقة البحر الأحمر، فقد أحدثت اكتشافاتهم الجغرافية في مطلع العصور الحديثة تغييرات جذرية في الأوضاع القائمة في البحار الشرقية( ). وقد وصل هؤلاء في نهاية القرن الخامس عشر إلى غربي الهند، حيث ثبتوا أقدامهم في أماكن إستراتيجية مختلفة حول المحيط الهندي سعيا وراء السيطرة على التجارة القديمة التي كانت تسير من الهند إلى البحر المتوسط عبر الخليج العربي والبحر الأحمر. وكانت البرتغال أول دولة أوربية قوية اهتمت بشؤون الخليج العربي( ).

تعددت الدوافع لغزو البرتغاليين لمنطقة الخليج العربي، فمنها الدافع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني، فضلا عن إلى الدافع الاستعماري لتكوين إمبراطورية كبيرة في الشرق ، ومع ذلك يعد الدافع الاقتصادي من أهم دوافع البرتغاليين للسيطرة

على منطقة الخليج العربي، وذلك لرغبتهم في احتكار تجارة المشرق، ومن ثم إنهاء دور العرب المسلمين، وخنق اقتصادهم، بإغلاق منافذ التجارة العربية( ). فمنذ أقدم الأزمنة كانت التجارة بين الشرق والغرب تسلك طريقين بحريين هما: طريق البحر الأحمر ومصر، وطريق الخليج العربي وبلاد الشام ، وكان المستفيد الأكبر من انتقال تلك التجارة هم دولتي المماليك والبنادقة( ). فقد كانت مصر خلال القرن الخامس عشر غنية بموقعها التجاري بين آسيا وأوروبا وأفريقيا، فضلا عن تحكمها بفرض الرسوم على البضائع المارة إلى أوربا، كما حقق البنادقة مكاسب كبيرة من هذا النظام باحتكارهم توريد البضائع الشرقية إلى بقية أنحاء أوربا( ).

كانت البرتغال في طليعة الدول الأوربية التي عملت على كسر ذلك الاحتكار، بإيجاد طريق بديل، غير طريق البحر المتوسط يوصلهم مباشرة إلى الشرق.

وبعد تحقيق غايتهم، اتسع نشاطهم التجاري في الهند وجزر الهند الشرقية. وسيطروا على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية، مما أدى إلى حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة إلى مصر والشام، كما أضر ذلك كثيرا بتجارة البندقية. من جانب آخر استمرت مساعي البرتغاليين من خلال مبعوثيهم إلى أسواق أوربا لاستمالة شركاتها التجارية إلى لشبونه، وتنازلوا عن الكثير من أرباحهم وعن الرسوم الكمركيه، تشجيعها لوصول تجار أوربا الى أسواقهم. وعملوا على دعم مركزهم التجاري في شمال أوربا بتوزيع البضائع الشرقية بأنفسهم، لاسيما في بلاد الألمان بأسعار منخفضة للإضرار بتجارة البندقية. وهكذا أصبحت البرتغال في أوائل القرن السادس عشر أكبر ناقل للتجارة بين الشرق والغرب. وأغرقت أسواق أوربا بالسلع الهندية وبأسعار رخيصة، مما جعل تجار أوربا يرتادون أسواق لشبونه ويهملون اتصالهم بأسواق إيطاليا ومصر والشام( ).

أما الدافع الديني فلا يقل أهمية عن الدافع الاقتصادي، حيث استغل البرتغاليون هذا الجانب لتحقيق هدفهم الأساس المتمثل في الاستغلال والاحتكار التجاري( ). وكانت فكرة محاربة المسلمين قد لاقت قبولاً عاماً في غرب أوربا منذ

الربع الأخير من القرن الحادي عشر، ففي أسبانيا كان الفونسو السادس ملك قشتاله يواصل ضغطه على المسلمين، واستطاع الاستيلاء على طليطله عام ، أما جنوه وبيزا فقد دأبت أساطيلها على مهاجمة المسلمين في كورسيكا وسردينيا، فضلا عن الموانئ الإسلامية في شمال أفريقيا( ). فكانت تلك الأحداث حلقات متصلة من العداء المتأصل نحو العرب والمسلمين، وقد اندفع البرتغاليون للسيطرة على الخليج العربي في بداية القرن السادس عشر بمباركة البابويه ونتيجة لحماسهم الصليبي لذي ورثوه من تاريخهم الماضي.( )

وبالإضافة إلى ما ذكرناه، فإن هناك دافع آخر مهم وهو الهدف السياسي الذي يتضمن رغبة البرتغال في تأسيس إمبراطورية توسعية تضم شرق أفريقيا والهند والخليج العربي، والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، والسيطرة على عدن والتسلل إلى البحر الأحمر والتحكم بساحليه( ).

ويعد العامل الاجتماعي من العوامل المهمة أيضا لاندفاع البرتغاليين إلى الخليج العربي، ولاسيما بعد قيام الطبقة الإقطاعية باستغلال القسم الأعظم من السكان، بعد أن فقد الفلاحي جزءا كبير من الفلاحين مواردهم، مما دفع هجر هؤلاء إلى المدن، ليعانوا حالات من الفقر دفعت القادرين منهم إلى التطوع في الحملات الخارجية للتخلص من حالة الحرمان، ولتحسين مستوى معيشتهم في بلاد مملوكة جديدة، مما هيأ للقيادة البرتغالية أعدادا كبيرة من الجنود لتنفيذ خططها التوسعية في الخارج( ).

: الاحتلال البرتغالي للخليج العربي :

بدأت محاولات البرتغاليون للسيطرة على الخليج العربي في نهاية القرن الخامس عشر بمباركة وتشجيع البابوية، حيث أرسل البابا نيقولا الخامس الذي شغل منصب البابوية في عام ما يسمى بـ(خطة الهند) إلى ملك البرتغال، وقد هدفت تلك الخطة إلى توجيه ضربات ماحقة للمسلمين، ونشر الكاثوليكية في المناطق التي يصل إليها البرتغاليون( ).

وقد أرسل الملك البرتغالي ((دون جواو الثاني Don Joi II)) الذي تولى الحكم عام بعثتين الأولى بحرية بقيادة ((بارثمليوديـاز Bartholome Dediaz)) والثانية برية استخباراتية مكونة من رجلين هما جون يبرس دي كوفلها وأفونسودي بافيا، وكانا يجيدان اللغة العربية، كلفهما بمهمة جمع أكبر قدر من المعلومات عن أفضل الطرق الموصلة إلى الهند( ).

حققت الرحلة البحرية التي قادها بارثلميودياز نجاحاً باهراً بالوصول إلى أقصى جنوب أفريقيا، حيث يلتقي المحيطين الأطلسي بالهندي : فكان ذلك ممهدا لإيجاد طريق بحري مباشر إلى الشرق، لهذا سمي بـ(رأس الرجاء الصالح)( ).

وبعد وفاة الملك البرتغالي دون جواو الثاني، خلفه في الحكم أخوه (الملك عمانوئيل (–) الذي كان متحمساً للوصول بحراً إلى الهند وقام بدراسة التقارير الاستكشافية عن الطريق البحري الذي يدور حول رأس الرجاء الصالح، كما درس التقارير التي قدمها الموفدون الذين سبق أن زاروا المنطقة ووقع اختياره على ((فاسكودي كاما Vasco Degama))( ) وقد استطاع دي كاما ويارشارد من البحار العربي أحمد بن ماجد أن يدور حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى كاليكوت( ).

دهش البرتغاليون لمظهر كاليكوت الفخم، ولنشاط حركته التجارية في مينائها. وقد رحب ملكها بدي جاما، فعقد معه ميثاق سلام وصداقه. وبعد عودة دي جاما إلى البرتغال قدم تقريرا إلى الملك عمانوئيل عن رحلته إلى الهند، وفي ضوء ذلك التقرير، وحسب الخطة العامة للبرتغاليين، قرر الملك الإسراع في السيطرة على تجارة المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، من خلال السيطرة على مخارجها التقليدية، ولتحقيق ذلك لا بد من إيجاد قواعد ارتكاز تقوم بحماية وتموين الأسطول البرتغالي الذي يتولى فرض السياسة الاحتكارية بالقوة وعدم السماح للسفن الإسلامية بممارسة أي نشاط ملاحي أو تجاري في هذه البحار( ).

تتابعت حملات البرتغاليين لترصين مركزهم في الهند( ). ومن أهم تلك الحملات العسكرية الحملة التي قادها ((الفونسودي البوكيرك Alfonso de AL buaueraue))( )، فقد استطاع ذلك القائد خلال إقامته في الهند أن يجمع بعض المعلومات عن الأوضاع التجارية والسياسية في البلاد الشرقية، ووضع على أساسها، وبتوجيه من الملك، خطه لترصين النفوذ البرتغالي في المنطقة( ). وبناء أسس الإمبراطورية الجديدة التي تبدأ باحتلال جزيرة سوقطره، ومن ثم ميناء عدن، للتحكم في مدخل البحر الأحمر، الذي كان واسطة للاتصال مع أوربا، عن طريق برزخ السويس، ومن ثم احتلال هرمز للسيطرة على تجارة الخليج العربي( ).

بدأت العمليات العسكرية البرتغالية في الخليج العربي في عام حين تحركت ستة عشر سفينة برتغالية يقودها البوكيرك، وكان أبرز ما استهدفه البوكيرك تحطيم مملكة هرمز، وذلك لأهمية موقعها الإستراتيجي كمنفذ للخليج وباعتبارها أقوى تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة في ذلك الوقت( ).

تمكن البوكيرك من السيطرة على عدد مـ الموانئ التجارية المهمة في الخليج العربي ومنها قلهات ورأس الحد ومسقط وهي الميناء الرئيس التابع لمملكة هرمز، وأكثر الموانئ مناعة وازدهارا( ).

توجه البوكيرك بعد سيطرته على تلك الموانئ إلى هرمز، لتنفيذ المخطط البرتغالي لاحتلالها، فأصدر ملك هرمز سيف الدين أوامره بتحشيد السفن، وعددها ستون في الميناء يحتشد فوقها المقاتلون في محاولة التصدي للأسطول البرتغالي. وكان البوكيرك قد أرسل عينا إلى هرمز، فجاء إليه بالمعلومات عن استعداداتها الدفاعية، الأمر الذي جعله يتريث( ). وبادر إلى إرسال موفد إلى ملك هرمز يطلب منه الاعتراف بسيادة ملك البرتغال على بلاده، وإلا فإنه سيتعرض إلى هجوم الأسطول البرتغالي، وقد عاد الموفد بصحبة رسول من ملك هرمز نقل إليه تساؤل الملك عن السبب الذي جعل البوكيرك يأتي إلى مينائه ؟ وماذا يريد ؟، فأجاب البوكيرك بأنه جاء بأمر من ملك البرتغال لفرض سيادته على مياه الخليج، ولهذا

فليس أمام ملك هرمز إلا الاعتراف بتبعيته إلى التاج البرتغالي، ودفع أتاوة سنوية، وإلا فانه سيهاجم الميناء، ويدمر سفنه، ويوقع الدمار بالمدينة( ).

اتبع البوكيرك ذلك باتخاذ حالة التأهب، وما أن مر يومان على بدأ المفاوضات، حتى قام بهجوم شامل، وقامت سفنه الحربية بإطلاق نيران مدافعها على سفن هرمز فدمرتها( ). وتمكن البوكيرك من دخول هرمز واحتلالها وأضطر حاكمها سيف الدين إلى طلب الصلح، وفي أيلول أجبر على توقيع اتفاقية مع البرتغاليين( ).

تضمنت تلك الاتفاقية شروطا قاسية فرضها البرتغاليون على الأمير سيف الدين كان من بينها قبول حماية البرتغاليين في مقابل الإبقاء على الحكم الوطني في الجزيرة، فضلا عن دفع غرامة عسكرية وجزية سنوية كبيرة لحكومة البرتغال إلى جانب منح البرتغاليين مزايا في المعاملات التجارية كان من أهمها إعفاء البضائع البرتغالية من الضرائب( ).

كما تضمنت المعاهدة بنودا أخرى أهمها منع السفن المحلية من ممارسة أي نشاط بحري أو تجاري في الخليج العربي إلا بعد حصولها على ترخيص من البرتغاليين، وبتلك المعاهدة وضع البرتغاليون أسس سيطرتهم البحرية ونشاطاتهم التجارية في الخليج العربي( ).

إن رد الفعل العربي لهذا الغزو وما رافقه من أعمال وحشية ونهب وحرق وتدمير لم يعط نتائج فورية وسريعة لأسباب منها : تفوق البرتغاليين المطلق في ميدان الأسلحة النارية، فالسفن العربية كانت سفنا تجارية لم تقوى على الصمود في معركة بحرية ضد أسطول حربي مزود بالمدفعية لذلك أصبحت السفن العربية، مهما كان عددها صيداً سهلاً للسفن الحربية البرتغالية التي كانت تستطيع تدمير وإحراق السفن التجارية العربية، يضاف إلى ذلك عدم وجود كيانات سياسية قوية في المنطقة، فيما عدا مملكة هرمز، تستطيع أن توحد جهود أبنائها لمواجهة التحدي البرتغالي.

ومع ذلك، لا يعني هذا إن عرب الخليج استكانوا مرحلة الوجود البرتغالي، بل قاوموا ذلك الوجود بما لديهم من وسائل، حتى أنهكوا قواتهم، وتمكنوا فيما بعد من طردهم وتحرير سواحلهم( ).

: عوامل انهيار البرتغاليين في الخ :-

فرض البرتغاليون هيمنتهم على سواحل الخليج العربي طوال القرن السادس عشر، تمكنوا خلاله من توجيه ضربات قوية لحركات المقاومة المحلية، ولكن مظاهر الضعف أخذت تتسرب إلى الكيان الذي أقاموه في المنطقة منذ أوائل القرن السابع عشر، مما أتاح المجال لعرب عمان للإطاحة به في منتصف القرن. وقد تضافرت عوامل عديدة على إضعاف النفوذ البرتغالي وانحلاله في الخليج، يأتي في مقدمتها، فقدان البرتغال لاستقلالها، بانضمامها إلى اسبانيا تحت تاج واحد عام ( )، فقد كان لذلك الحدث تأثيراً كبيراً في وضع البرتغاليين في الشرق ذل اهتمام التاج الأسباني كان مكرسا لرعاية إمبراطوريتهم الواسعة في العالم الجديد، مما قلل الاهتمام بالمواقع البرتغالية في الشرق. فتناقصت الإمدادات العسكرية إلى تلك المواقع وضعف الإشراف عليها. مما أضعف روح الانضباط بين الجنود والبحارة البرتغاليين( ).

ومن العوامل المهمة التي أدت إلى إضعاف النفوذ البرتغالي في الخليج المعاملة السيئة والعنف الذي كان طابع معاملة البرتغاليين مع جيرانهم أهالي الشرق، هذا إلى جانب مشاعر الحسد والشقاق السائدة فيما بينهم، والأهم من ذلك إن البرتغاليين لم يؤسسوا شركات تجارية كما فعل منافسيهم الإنكليز والهولنديون، فقد كانت تجارتهم في الشرق تعد احتكارا ملكيا اشتهر بسوء الإدارة والتنظيم وأصبحت قواعدهم العسكرية التي كانوا يستندون عليها مهددة بسبب: فقدان النظام ونقص الكفاءة( ).

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى انهيار السيطرة البرتغالية في الخليج العربي هو إن البرتغال اتسعت أكبر من حجمها فقد كانت دولة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن المليون نسمة، بالإضافة إلى إنها تمتلك سفن قليله، ومستوطنين وجنودا وبحارة أقل مما يتيح لها إدارة الإمبراطورية الشاسعة الأطراف وتأمين الحماية لها( ).

ومن العوامل المهمة التي أدت إلى إضعاف النفوذ البرتغالي في الخليج العربي خسارتهم للبحرين، ففي عام نجحت قوات الشاه عباس الكبير في طرد البرتغاليين من البحرين، كما سقطت جمبرون وتبعتها رأس الخيمة في عام وأخذ مركز البرتغاليين الحصين في هرمز يتعرض لهجمات فارسية متكررة، وعلى الرغم من إن البرتغاليين نجحوا في التصدي لبعض هذه الهجمات فأعادوا تعزيز قوتهم في ميناء بندر عباس وقاموا بهجوم كبير على صحار، إلا إنه أصبح واضحا إن مركز البرتغاليين في الخليج أخذ يتعرض إلى الانهيار السريع وخاصة حين تلاقت مصلحة الشاه عباس مع مصالح التجار الإنكليز في الإطاحة بالنفوذ البرتغالي حيث اشتركت السفن الإنكليزية مع قوات الشاه عباس في عملية هجوم ناجحة على قاعدة الحصينة من هرمز( ) وانتهى الأمر بسقوط هرمز واستسلام البرتغاليين في الثالث والعشرين من شهر نيسان بشروط تضمنت ما يأتي:

- السماح لملك هرمز والأمراء والوزير بالمغادرة.
- تغادر النسوة مع الأطفال بدون إهانة وتفتيش.
- انسحاب الفرس إلى مدينة هرمز وتترك المواقع فارغة.
- السماح لقائد القلعة البرتغالية بالمغادرة مع خدمه وبعض أغراضه إلى مسقط.
- يغادر الجنود البرتغاليون القلعة بكامل أسلحتهم ومتاعهم لينقل الجميع إلى مسقط( ).

لقد كان سقوط هرمز دليلاً على ضعف البرتغاليين في تلك الحقبة ، فضلاً عن انعدام وجود قوة بحرية مساندة لهم من القاعدة البرتغالية في كوا تساعدهم في التغلب على القوى البحرية الأخرى. وكان لهروب القوات البرتغالية المنكسرة إلى مسقط، أثره

في قيام الشاه عباس بالتقدم نحو السواحل العمانية. واحتلال ما يمكن احتلاله من قواعد برتغاليه، فهاجمت قواته بمساعدة حشود من العرب بقيادة كايد بن عدوان أحد شيوخ قبائل ساحل عمان، المواقع البرتغالية، وقد اندفعت الحشود لتحتل مواقع أخرى بالقرب من القلاع البرتغالية في صحار وخور فكان، إضافة إلى المناطق الوعرة في رأس مسندم وروس الجبال في مدخل الخليج العربي( ).

وكان نظام الحكم الذي أتبعه البرتغاليون في أملاكهم قد ساعد أيضا على انهيار الإمبراطورية البرتغالية. إذ كان همهم الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها عن طريق إقامة القلاع والحصون في سوقطرة ومسقط وعدن وهرمز ومالقا أي في المحطات الرئيسة الواقعة على منافذ البحار ومسالكها. وأقاموا نظاما من الحكم في الشرق كان في النهاية سببا في انحلال إمبراطوريتهم، فقد جمعوا السلطه كلها في شخص نائب الملك المقيم في كوا، الذي تمتع بسلطة مطلقه، وكانت مدة بقائه في هذا المنصب قصيرة، لذلك نجده يسيء معامله الأهالي ويبتز الأموال ليكون لنفسه ثروة( ).

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في إضعاف الإمبراطورية البرتغالية اعتماد البرتغاليين على القوة لتحقيق أغراضهم القومية والفردية، كما أن تعصب البرتغاليين، وقساوتهم في معاملة السكان من العرب خاصة والمسلمين عامة، جعلهم مكروهين من قبل السكان. ولا أدل على ذلك من سلسلة الانتفاضات التي قاموا بها للتحرر من هيمنتهم ويضاف إلى ذلك ظهور قوى أوربية قوية نافستهم في الشرق، ومن تلك القوى إنكلترا وهولندا، مما أدى إلى استنزاف قوة البرتغاليين البحرية، لا في الخليج العربي فحسب، وإنما في كل أرجاء المحيط الهندي( ).

ومهما يكن من الأمر، فان أهم العوامل التي أدت إلى إضعاف النفوذ البرتغالي في الخليج العربي حركة المقاومة العربية العنيفة في الخليج العربي ضد الهيمنة البرتغالية، فقد تتابعت الانتفاضات ضدهم منذ المراحل المبكرة لغزوهم، وعمل العرب على التخلص من تلك الهيمنة بمختلف الوسائل والمحاولات اعتمادا على إمكانيتهم

الذاتية أحيانا، وبمد يد العون للدولة العثمانية حينما تدخلت في الخليج لمواجهة النف البرتغالي أحيانا أخرى، مما ساعد على إنهاك القوة البرتغالية المتمركزة في الخليج العربي( ).

أدى إحكام البرتغاليين سيطرتهم على المنافذ العربية التي كانت تمر منها تجارة الشرق والأساليب العنيفة التي طبقوها ضد القوى الإسلامية إلى حرمانها من ازدهارها الملاحي والتجاري السابق ولذلك أخذت تلك القوى تتحين الفرص للإيقاع بهم( ) فقد قاوم عرب الخليج التسلط البرتغالي بكل ما لديهم من وسائل، وتجلت تلك المقاومة بوضوح لدى عرب الساحل العماني، ممن وقع عليهم عبء عنف وقسوة الأساليب البرتغالية، بسبب رفضهم المستمر للوجود البرتغالي، منذ المراحل المبكرة لذلك الوجود وكانت من أبرز الانتفاضات ضد الوجود البرتغالي انتفاضة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي (–) الذي انتخب زعيما لسلالة اليعاربة في عمان التي استمرت في الحكم حتى سنة .

استطاع الإمام ناصر أن يضع أسسا متينة لدولة قوية، وأن يمد سلطته على أهم المدن والقلاع في عمان، الداخلية والشرقية والظاهرة، التي جعل منها ظهيراً قوياً لحروبه في تحرير الساحل من الهيمنة البرتغالية، معتمدا على جيشه الفتي، الذي تشكل من قوات القبائل التي انضوت تحت لوائه( ).

خاض الإمام ناصر سلسلة من المعارك مع البرتغاليين، وأغتنم الإمام فرصة طرد البرتغاليين من هرمز عام ، فقام بالقضاء على ما كان لتلك المملكة التابعة للبرتغاليين من سيادة على صحار( ).

وبعد تحريره لصحار أجرى الإمام اتصالات بالقوى الأوربية من أجل عقد اتفاقيات تجارية بين الطرفين والتفرغ لتحرير مسقط التي كانت قاعدة الارتكاز البرتغالي في الخليج العربي( ).

جهز الإمام جيشاً قوياً إلى مسقط في أيلول عام وأحكم الجيش حصاره للمدينة وعزلها عن بقية المدن العمانية، وفشلت محاولات القوات البرتغالية في فك

الحصار الذي عانى منه رجال الحامية ولاسيما بعد فشل قائدهم دوم جولياودا نورها Dom Juliaoda Narohha في الحصول على إمدادات من الهند، مما أضطره إلى طلب الصلح( ) وتقدم الإمام بعدة شروط للبرتغاليين منها إعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع في مسقط التي يجب إزالة أسوارها، وأن يدفع البرتغاليون جزية إلى الإمام. لكن القائد البرتغالي عد هذه الشروط ثقيلة، وأنها تفتح الطريق أمام العثمانيين لاستعادة مسقط،وإن البرتغاليين إذا فقدوا مسقط فسوف يفقدون نهائيا آخر مواقعهم في منطقة الخليج العربي فرفضها، واستمرت المناوشات بين الجانبين، واستمر ضغط العرب حتى تمكنوا من السيطرة على المرتفعات المشرفة على القلاع المحصنة للبرتغاليين، مما اضطر القائد البرتغالي إلى التماس الصلح مجدداً موافقاً على الشروط العربية التي تضمنت حرية الملاحة للسفن العمانية في مياه الخليج العربي دون أن تخضع لمراقبة السفن البرتغالية، وأن تكون مسقط مدينة تجارية حرة، وان يهدم العرب التحصينات التي شيدها البرتغاليون أثناء حصارهم لمسقط ولا يحق للبرتغاليين بناء تحصينات جديدة على أنقاض تحصيناتهم السابقة.

وتم توقيع الاتفاقية في الحادي والثلاثين من تشرين الأول عام غير إن بنودها أثارت غضب السلطات البرتغالية وعدت توقيعها من قبل القائد دانودونها خيانة لأنها أهانت شرف الإمبراطورية البرتغالية، فأصدر الملك البرتغالي جون الرابع (–) أوامره في الرابع من كانون الثاني أوامره ببذل كافة الجهود من أجل التمسك بمسقط وزيادة عدد السفن في الميناء ومنع العرب من البقاء فيها. إلا إن الأمر قد خرج عن إرادة البرتغاليين وكان العلم العماني يرتفع بشموخ على طول الساحل العماني( ).

وهكذا نجد إن عوامل عديدة ساهمت في إنهاء الوجود البرتغالي في الخليج العربي. وكان العامل الحاسم في إضعاف البرتغاليين قوة عرب عمان وانتفاضاتهم المتكررة بقيادة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي.

:

توصل البحث إلى الاستنتاجات التالية : -

- تمتاز منطقة الخليج العربي بموقع جغرافي مهم، كونها تربط بين القارات الثلاث الرئيسية في العالم آسيا وأفريقيا وأوربا، لذلك كانت هذه المنطقة ميدانا للتنافس بين الدول الاستعمارية الأوربية. وهناك عامل آخر يزيد الخليج العربي أهمية كونه من مراكز التجارة والنشاط الملاحي في العالم، فهو يتمتع بموقع استراتيجي مهم، فيما كان يعد قديماً خطاً من خطوط المواصلات الدولية، تنقل عن طريقها الأفكار والمصالح التجارية.
- كانت البرتغال في مقدمة الدول الأوربية التي فكرت بغزو الخليج العربي، وذلك لسبقها الدول الأوربية في الاستكشافات الجغرافية، وكذلك لامتلاكها الأسلحة المتطورة آنذاك، فكانت البرتغال تمتلك السفن الكبيرة المزودة بأحدث الأسلحة.
- تعددت الدوافع لغزو البرتغاليين للخليج العربي، فمنها اجتماعية ودينية وسياسية. إلا إن الدافع المهم للبرتغاليين في السيطرة على الخليج هو الدافع الاقتصادي المتمثل برغبتهم في احتكار تجارة المشرق، وإنهاء دور العرب المسلمين، وخنق اقتصادهم بإغلاق منافذ التجارة العربية.
- تمكن البرتغاليون من السيطرة على الخليج العربي في بداية القرن السادس عشر، ويعود السبب في احتلالهم لتلك المنطقة إلى انعدام التكافؤ في النواحي الإدارية والتنظيمية والعسكرية بينهم وبين القبائل آنذاك، فقد كانت القبائل العربية تعاني من التفكك وانعدام القيادة الموحدة، بالإضافة إلى أسلحتهم التقليدية مقارنة بالأسلحة المتطورة التي يمتلكها خصومهم البرتغاليون.
- امتاز الغزو البرتغالي للخليج العربي بالوحشية، حيث تعرضت المنطقة لمختلف أشكال الخراب والتدمير، وكان هدف البرتغاليين الاحتكار والاستعمار، متجاهلين مصالح أهالي المنطقة، مما أدى إلى كره العرب والمسلمين لهم، فأخذوا يتحينون الفرص للتخلص من سيطرتهم.

- تضافرت عوامل عديدة ساهمت في إضعاف النفوذ البرتغالي في الخليج، فمنها داخلية تمثلت بفقدان البرتغاليين لاستقلالهم، وانضمامهم إلى إسبانيا في عام ، فكان اهتمام الأسبان مكرسا لرعاية إمبراطوريتهم الواسعة في العالم الجديد، مما قلل الاهتمام بالمواقع البرتغالية في الشرق.
- كانت أبرز العوامل التي أدت إلى نهاية النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي، عمليات المقاومة العربية، المتمثلة بسلسلة من الانتفاضات المسلحة التي شهدتها موانئ عمان وهرمز والبحرين والتي استنزفت قوة البرتغاليين.
- أشر نجاح ثورة البحرين في عام ، وفشل محاولات البرتغاليين في إخمادها، إلى اقتراب نهايتهم، ولاسيما بعد دخول قوى بحرية أوربية جديدة إلى ميدان الصراع، متمثلة بشركتي الهند الشرقية الإنكليزية والهولندية. كما إن البرتغاليين قد تلقوا ضربة قاسية بخسارتهم هرمز في أوائل عام ، ففقدوا قاعدة ارتكازهم في الخليج العربي.

الهوامش :

1 - علي خضير عباس المشايخي، السياسة البريطانية في البحر الأحمر – ، إطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، .

2 - صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي – ، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي، بغداد، .

3 - بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الكويت، .

4 - لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ، قطر، .

5 - دينا محمد مظفر الأدهمي، الأوضاع السياسية في الخليج العربي في ظل التسلط البرتغالي – ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، .

6 - المصدر نفسه، ص .

7 - نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية للخليج العربي – ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، .

8 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

9 - صالح أوزبران، المصدر السابق، ص .

10 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

11 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

12 - محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج للفترة ما بين – ، دبي، .

13 - لوريمر، المصدر السابق، ص .

14 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

15 - المصدر نفسه، ص .

16 - كاليكوت مركز للتجارة العربية في الهند ويغادرها كل موسم إلى البحر الأحمر ما بين عشر إلى خمس عشرة سفينة محملة بالتوابل وبضائع الهند، مما يعكس أهميتها في التجارة. ينظر :-
عبد الكريم غرايبه، مقدمة في تاريخ العرب الحديث – ، دمشق، .

17 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

18 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

19 - الفونسودي البوكيرك : عمل عشر سنوات في شمال أفريقيا واكتسب خبرة عسكرية، كان يرغب أن يقترن اسمه بالاستيلاء على مضيق هرمز حيث قال : ((لو كان العالم خاتما لكانت هرمز جوهرته)). عين نائبا لملك البرتغال في عام . وعمل على احتلال المراكز البحرية الهامة وإقامة الحصون القوية في جميع أنحاء المحيط الهندي، لإحكام سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة. مات البوكيرك في الخامس عشر من كانون الأول . للتفاصيل ينظر : علي غنام، كيف نجحت دول أوربية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة، مجلة الخليج العربي، العدد الأول، المجلد التاسع عشر، .

20 - محمد حميد السلمان، المصدر السابق، ص .

21 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

22 - جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة تاريخية لتاريخ الإمارات العربية في عهد التوسع الأوربي الأول - ،القاهرة، .

23 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

24 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

25 - لم تكن السفن الهرمزية معدة أساسا للقتال البحري، وتفتقر إلى السلاح الناري. ينظر عصام سخيتي، مملكة هرمز أسطورة الخليج التجارية – ، دبي، .

26 - المصدر نفسه، ص .

27 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

28 - جمال زكريا قاسم، تاريخ الإمارات العربية، ص .

29 - عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة – ، بيروت، .

30 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

31 - في عام سقط الملك سباستيان قتيلا في معركة (القصر الكبير) الشهيرة في المغرب، فخلفه على العرش الأمير هنري الملقب بالأبله، الذي توفي بعد أقل من سنة ونصف، وبموته انتهت سلالة (أفيس) الملكية البرتغالية، مما أدى إلى انتقال التاج إلى فيليب الثاني ملك اسبانيا، وبذلك وجد البرتغاليون أنفسهم منذ عام رعايا للمملكة الإسبانية، ودام ذلك حتى عام حينما استعادت البرتغال استقلالها. ينظر : -

صالح العابد، دور القواسم في الخليج العربي – ، بغداد .

32 - دينا محمد الأدهمي، المصدر السابق، ص .

33 - جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص .

34 - جمال حمدان، إستراتيجية الاستعمار والتحرير، الطبعة الأولى، القاهرة، .

35 - جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص .

36 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص .

37 - صالح العابد، المصدر السابق، ص .

38 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص ؛ جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص .

39 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، ص ؛ نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

40 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

41 - جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص .

42 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

43 - جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا - ، مكتبة القاهرة الحديثة، .

44 - بدأت علاقة الإنكليز بعمان مع بداية بروز سلالة اليعاربة تقريبا، لكنها لم تتسم بالاستمرارية، وقد جرى الاتصال الأول عام ، فبناء على طلب الإمام ناصر أرسل ممثلو شركة الهند الشرقية الانكليزية في سورات فيليب وايلد الى صحار، للتفاوض من أجل معاهدة للتعاون، وتم التوقيع على المعاهدة في شباط ، وتضمنت امتيازات واسعة للانكليز منها حرية التصدير والاستيراد، وإعفاء تجارتهم من الضرائب ويلتزم الإمام بالتعويض عن أي سرقة تتعرض لها التجارة الانكليزية.

ينظر: صالح العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي – ، بغداد، .

45 - نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص .

46 - دينا محمد مظفر الأدهمي، المصدر السابق، .